اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام ج٩ | الآيات [٥٨ : ٦٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نستكمل بإذن الله عز وجل ما بدأناه في تفسير سورة الأنعام، توقفنا عند الآية [٥٩]، عند قول الله عز وجل: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]. لنا مع هذه الآية وقفات: هذه الآية من أجمل الآيات التي تتكلم عن سعة معرفة الله عز وجل وسعة اطلاعه –سبحانه وتعالى–، وهيمنة أمره عز وجل على الكون كله ، حتى أنه ما من ورقة تسقط ولا حبة إلا والله عز وجل يعلمها.

الوقفة الأولى مع الآيات:

أنها جاءت في سياق الاستمرار وهذا إن اعتبرنا هذه الآية –وهذا رأي بعض المفسرين– تكملة واستمرار للجدال مع المشركين، حيث قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: نريد آية! من أول السورة وهم يصرون: نريد آية، أنزِّل لنا آية، ائتنا بآية حسية غريبة، حوِّل لنا جبل الصفا ذهبًا! ويستمرون في الضغط على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب مطالب كثيرة، يتظاهرون بأنهم يسمعون القرآن ثم يطالبونه بطرد الفقراء، فجاءت الآية الواضحة التي تحدثنا عنها المرة السابقة: {قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ}[الأنعام ٥٠] يقول لهم: هذا ليس عندي. ثم استمر النقاش وقال لهم: لو كان عندي {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}[الأنعام ٥٩] ثم تأتي الآية التي بعدها: {وعنده مفاتيح الغيب}، إذًا فلدينا ثلاثة سياقات: أنا ليس عندي، ولو كان عندي لقضي الأمر، إذًا فعند من؟ عند الله عز وجل، فكلمة {وعنده} معطوفة على قول الله عز وجل: {ما عِندي ما تَستَعجِلونَ بِهِ إِنِ الحُكمُ إِلّا لِلَّهِ يقص الحق وهو خير الفاصلين}[الأنعام ٥٧]، {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}[الأنعام ٥٨] فيتبادر سؤال: إن لم يكن عندك فعند مَن إذًا؟ عند الله –سبحانه وتعالى–، لذلك كان ختام الآيات: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ} ختمت بالعلم، فجاءت الآية التي بعدها تدل على سعة علم الله سبحانه وتعالى، وسنكمل بتفصيل أكثر في ربط الآيات ببعضها.

لنا وقفات عدة مع هذه الآية، قلنا أن **الوقفة الأولى**: الربط.

الوقفة الثانية :هي أن أسلوب القرآن في الكلام عن الله عز وجل أسلوب مختلف تمامًا، يختلف عن الكلام النثري أو كلام البشر. عندما يتحدث القرآن عن الله عز وجل فليس مجرد سرد معلومات إلى جانب بعضها، الله يخلق، الله يرزق، الله يحيي، الله يميت، وهكذا، بل يذكرها في سياقات معينة فيه توضيحٍ لضعف قدرة الإنسان وقلة علمه واحتياجه لربه، يتكلم عن الكون كله ويربطه بالله فيجعل الإنسان يعيش وهو يرى الله في كل شيء، مثلًا: منظر الطير في الهواء، القرآن يربط لك هذا المنظر بالله، أن الذي يمسك الطير في الهواء هو الله، منظر الورقة وهي تسقط من حولك يذكرك أن الله مطلع عليها، حتى الحبة التي في ظلمات الأرض الله يعلمها، أي شيء يحدث حولك القرآن يصوره لك وكيف أنه متصل بالله، لا يحدث شيء بعيد عن إحاطة الله -سبحانه وتعالى-. فالقرآن عندما يحدثك عن الله يحول هذه المعلومات إلى طاقة وإيمان داخلك ويربط كل شيء حولك بالله -سبحانه وتعالى- فيجعلك تسير في الحياة متصلًا بالله، أي شيء يحدث حولك، حتى لو ظالم ظلم مظلومًا؛ عليك أن تعلم أن هذا بتقدير من الله -سبحانه وتعالى-{ ولو يشاء الله لانتصر منهم}[محمد ٤]، وإن انتصر المظلوم تربط ذلك أيضًا بالله، فالله قد قال بأنه سيأخذ الحق للمظلوم، لأنه حتى مجرد ورقة أو مجرد الأشياء البسيطة جدا التي لا تمثل للإنسان أي شيء الله عز وجل مطلع عليها، والله عز وجل مقدرها، وتحدث بتدبير من الله عز وجل، فلا يوجد شيء في الكون إلا وقد أحاط علم الله به، حتى الطائر {ما يمسكهن إلا الرحمن}[الملك ١٩] الطائر ليس مستقرًا في السماء إلا برحمة من الله عز وجل، السماء ليست مستقرة إلا بفضل من الله، الأرض ليست مستقرة إلا بفضل ورحمة من الله عز وجل، وأن الله لو شاء لأسقط السماء على الأرض...{هو الذي جعل لكم الأرض ذلولًا}[الملك ١٥] ذلولًا أي كالدابة المذللة، الدابة التي كان أصلها -في ظاهر خلقتها- غير مذللة للإنسان... مثلًا عندما ترى بقرة كبيرة أو جملًا، فظاهر خلقة هذه الدابة أنها لا يمكن أن تنقاد لطفل صغير، فتفاجأ أن طفلًا صغيرًا يشد جملًا أو ناقةً أو خيلًا، كيف؟! لأن الله عز وجل ذلل له هذا الحيوان، وكذلك أصل خلقة الأرض وما فيها من براكين تغلي من الداخل وتلك الحركة السريعة؛ كان أصل ظاهر خلقتها ألا تكون مذللة للإنسان، ولكن الله عز وجل هو الذي ذللها للإنسان، النجوم، حركة الشمس؛ كل شيء تربطه بالله جل وعلا.

، فأنت تشعر وأنت تقرأ القرآن -وهذا يزيد إيمانك بالله- تشعر أن القرآن يربط كل شيء بالله فتعيش مع الله في كل طلعة شمس، في كل مرة ترى فيها القمر، كل طائر يمر أمامك، كل ورقة تسقط، كذلك في

حركة الأكوان، حركة الكواكب، حركة الأقمار، في نزول الغيث، كل قطرة تنزل، في حركة الأرزاق، فالقرآن يقوم بعمل نقلة معنوية مختلفة تمامًا لك وهو يتحدث عن الله، فلا يستطيع أن يتكلم بهذه الطريقة إلا الله -سبحانه وتعالى-.

سيد قطب يقول: أن هذه الآية دليل على أن القرآن من عند الله، كيف؟ يقول أن البشر إن أرادوا مدح علم شخصٍ ما فلا يمكن أن يخطر في ذهنهم مشهد الورقة وهي تسقط، ماذا في مشهد الورقة وهي تسقط؟! بل سيمدحونه مثلًا فيقولون هو يعلم أسماء جميع الناس، هو يعرف عدد أطفالهم، أما أشياء صغيرة مغمورة مثل حبة في ظلمات الأرض، من الذي سينشغل بشيء كهذا! أو أن هذا رطب أو يابس أو مجرد ورقة! تخيل منظر ورقة تسقط، هكذا عندما تقف أمام غابات وأمامك ملايين من الفدادين ومثلًا أمامك في هذا الظلام أماكن كثيرة في الأرض لم يستطع الإنسان الوصول لها في باطن الغابات بسبب الأشجار الملتفة حول بعضها، ليس هناك حل غير أن يأتوا بطائرات ويقذفوا قذائف تحرق الغابات ثم يتركوها فترات حتى يستطيعوا الوصول لها، تخيل من الذي يرزق تلك الكائنات التي هناك! فسعة علم الله عز وجل لا حدود لها، علم مهول، طرح كهذا لا يطرحه إلا القرآن!

وهذه **الوقفة الثالثة**: أن طرح القرآن عندما يتكلم عن أي صفة من صفات الله فهو مختلف عن أي طرح آخر. القرآن عندما يتحدث عن قدرة الله أو أنه الخبير، أو هيمنته -سبحانه- يأتيك بأشياء لا تتخيلها، فهذه الآيات دليل أن القرآن نزل من عند الله -سبحانه وتعالى-، أيضًا القرآن يبني داخل الإنسان ليس مجرد معرفة بل يبني إيمانًا يضغط على فطرة الإنسان الضعيفة بطبعها والمفتقرة لله، لأن الإنسان مفطور على أن لديه ضعفًا ويريد شيئًا عظيمًا يتلجئ إليه، ينقذه من الأهوال والمخاطر التي تحيط به، الإنسان مفطور على هذا، يبحث عن أي شيء يلجأ إليه يصرف عنه هذه المخاطر، فيضغط القرآن نفسيًا على الإنسان ويقهره، يجعله يوقن أن هناك خالقًا واحدًا لهذا الكون وأن القرآن كلام هذا الخالق العظيم، يقهره نفسيًا كما ذكر -سبحانه- في السورة مرتين: {وهو القاهر فوق عباده}[الأنعام ٦١/١٨]، لذلك فآيات القرآن تضغط على الإنسان حتى يؤمن.

لو أننا فهمنا القرآن بطريقة صحيحة وعرفنا كيف نطرحه على الناس بطريقة صحيحة، فسيكون الناس بين خيارين، إما أن يؤمنوا وإما أن يجحدوا، وهذا ما حدث مع المشركين، لأن كثرة الضغط بأسلوب القرآن لا بد أن يصل بك لشيء من اثنين إما أن تؤمن وإما أن تصدق ثم تجحد، أما أن يكون هناك

شك فهذا لا يتأتى مع القرآن أبدًا. فآيات المعجزات التي ينزلها الله للأنبياء تضغط على الناس إلى أن يؤمنوا، لذلك حديث البخاري المشهور يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر وإنما كان الذي أوتيته وحي أوحاه الله إلي)[1] فقال ابن حجر في تعليقه على قول النبي صلى الله عليه وسلم، بأنه كان من المتوقع أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما بمثله آمن البشر" فيقول أن كلمة (على مثله) أي أن الآية تأتي على الإنسان منهم فتضغطه وتجعله يؤمن رغمًا عنه، إما أن يؤمن أو يجحد. فمنظر الناقة وهم يرونها أمامهم أو يرون آيات سيدنا موسى، تجعلهم ليس أمامهم حل آخر إما أن يؤمنوا أو يوقنوا أنه من عند الله ثم يجحدوا. لما سمعوا القرآن علموا أنه فوق طاقة البشر لذلك السحرة لما رأوا آية سيدنا موسى ماذا قال ربنا؟ {فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجِدِينَ}[الشعراء ٤٦] وانتبه لكلمة {ألقي} معناها رغمًا عنه ضغطت عليه الآيات فاضطر أن يترك نفسه فارتمى ساجدًا، لذا كثير من الكفار مثل جبير بن مطعم لما سمع سورة الطور قال: "كاد قلبي أن يطير"، فالكافر عندما يسمع القرآن يضغط عليه نفسيًا ثم يضغط عليه أكثر حتى يحاصره نفسيًا {أَلَا يَعلَمُ مَنۡ خَلَقَ}[الملك ١٤] الله عز وجل الذي خلق الإنسان هو الذي تكلم بهذا القرآن، فلو استطعنا فهم القرآن ودعونا الناس بالقرآن لن يبق أمامه خيار آخر إما أن يؤمن وإما أن يجحد. فالشاك لا يبق له مكان مع كثرة تلاوة القرآن على الناس. لذلك **القرآن فيه ملمح غيبي التأثير، فيه شيء غيبيّ، هناك قوة غيبية في القرآن لا نفهمها** فعندما يقول ربنا {فَذَكِّر بِٱلۡقُرۡآنِ}[ق ٤٥] اعلم أن القرآن به قوة حتى لو لم تدركها أنت؛ حتى لو أتيت بكلام –مثلًا– أحد المفكرين وقلت في نفسك هذا كلام جميل لا أشعر بفرق بينه وبين القرآن –وهذا من جهل الإنسان–، لا؛ القرآن مختلف وإذا كانت الأبحاث عن تأثير القرآن على جسم الإنسان وعلى الجمادات أو على الكافر الذي لا يفقه اللغة العربية –أيًا كان– فنحن معنا من الآيات ما يغنينا حتى عن هذه الأبحاث، فاستبدال المنهج القرآني في الدعوة بمنهج آخر يُفقدك الجزء الأكبر من قوتك.

مثلًا تخيل الذي يبحث عن مناهج أخرى للدعوة كأنه مثل سيدنا موسى عندما ألقى العصا فانبهر الناس، فماذا فعل فرعون؟ جمع السحرة من كل مكان {وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ}[يونس ٧٩] و{كل سحَّار}[الشعراء ٣٧] يعني أتى بالأستاذ والأستاذ المساعد وأتى بكل من

[1] ابن تيمية(٧٢٨هـ) الجواب الصحيح ٦/٣٨٠. [صحيح] ..لفظ البخاري (ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)

يفهم في السحر، فتخيل معي الآن كأن سيدنا موسى رأى منظر السحرة وهم محتشدون، فقال في نفسه: كما أتى فرعون بسحرة مصر فلآتي بسحرة من ليبيا أو من كذا ممن سمعت أنهم أقوى سحراً، حتى يكون سحر في مواجهة سحر لأن عصاي لن تجدي، لا؛ أنت **لا بد أن تكون واثقًا من منهجك** {أَلْقِ عَصَاكَ} [النمل ١٠] {أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ}[طه ٦٩] **ألقِ ما معك فهذا ما سيهزمهم**... فكذلك نحن أحيانًا نرى مناهج وأفكار مبهرة فنقول ربما ينبغي أن نترك ما معنا ونبحث عن منهج آخر يرد على الأفكار الخطيرة مثل الليبرالية والاشتراكية، لأن منهجنا لن يستطيع أن يرد على هذه الأفكار فنستورد أفكار ومناهج أخرى! لا؛ أنت ألق ما في يمينك، ألق القرآن الذي معاك {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}[النمل ٦] الله عز وجل هو الذي تكلم بهذا القرآن وهو الذي خلق الإنسان، فلا بد للإنسان أن يظل واثقًا فيما معه من القرآن وواثقًا في أن القرآن مختلف.

الوقفة الرابعة في الآية: من سمات الأنبياء في دعوتهم كثرة الكلام عن الله وهذه علامة فارقة وضعها ربنا بين الأنبياء والشعراء، ختام سورة الشعراء يقول ربنا: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}[الشعراء ٢٢١-٢٢٧].

الشاهد: يقول لنا ربنا أنه هناك فروقات بين الأنبياء والشعراء. ولماذا الأنبياء والشعراء؟ لماذا هذا مهم بالنسبة لنا؟ لماذا يوجد سورة كاملة اسمها الشعراء؟ ولماذا هي مليئة بقصص الأنبياء وتركز على أقوال الأنبياء؟ الجواب: لأن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن، هو كلام وليس شيئًا حسيًا فعندما أحبوا أن يضاهئوه أتوا بكلام آخر، وأكثر كلام كان يؤثر في العرب هو الشعر. فلما أراد فرعون أن يصرف الناس عن سيدنا موسى لم يأتِ بشعراء بل أتى بسحرة، لذلك عندما أرادوا أن يصرفوا الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأتوا بسحرة بل بشعراء! لذلك فرعون قال قاعدة مهمة في الحرب {فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ}[طه ٥٨]! سنأتي بشيء يشبه ما جئتنا به فلا يُعقل أن يحاربك العدو بشيء وتحاربه بشيء لا يشبهه! نحن قوتنا في كلام أنزله الله عز وجل، لذلك أول ما نزل القرآن قالوا "إنه كلام يوشك أن ينفد" يقصدون أنه مجرد كلام! فأنزل الله عز وجل: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ

وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[لقمان ٢٧] **معاني كلمات الله لن تنفد إلى يوم القيامة، فالذي يعتقد أنه كلام يوشك أن ينتهي فهو مخطئ!**

فالشاهد: أن الله علمنا في سورة الشعراء فوارق عندما يأتينا شخص بكلام جميل كيف نفرق بين الشعراء والأنبياء، أيًا كان هناك تفصيل طويل طول السورة ومركز في ختام السورة، من أهم هذه الفوارق: {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}[الشعراء ٢٢٧] الذي يذكر الله كثيرًا في كلامه هذا من أهل الدين. لذلك عندما يقول أحدهم لم أعد أعلم أي البرامج أصدق البرنامج الفلاني أم البرنامج الفلاني! أبسط طريقة تُفرق بها بين هذا وذاك أن ترى إلى أي حد يدعو إلى الله؛ إلى أي حد يتكلم عن صفات الله، إلى أي حد يتكلم عن قهر الله لعباده، هل يتكلم عن تشريع الله لعباده ومدى جمال تشريعه عز وجل؟ انظر إلى أي حد يدعو الناس إلى دين الله، انظر وميز؛ فإذا كان قليل في كلامه عن الله وعن القرآن فاعلم أن هذا بعيد عن المنهج الحق، وإن كان معدومًا فاعلم أنه مضاد ويحارب الدين.

لذلك عجيب جدًا الخطاب المحتدم بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين، يقولون أنزل لنا آية أخرى، فيقول لهم ليس عندي، ثم يكررون ويكررون ويكثرون الضغط على النبي صلى الله عليه وسلم! وانظر إلى قمة تجرده صلى الله عليه وسلم ظل يقول ليس عندي {قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}[الأنعام ٥٠]، {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}[الأنعام ٥٨]، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[الأنعام ٥٩] الداعية يفرح عندما يتكلم تفصيلًا عن الله، ثم بعد ذلك {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}[الأنعام ٦٠-٦١] انظر إلى طول الكلام عن الله! لذلك من أشهر سور المحاجة الموجودة في نفس السورة التي تكلمنا فيها التي فرق الله فيها بين الأنبياء والشعراء- سورة الشعراء-، عندما كان سيدنا إبراهيم يحاج قومه قال: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأقدمون * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين}[الشعراء ٧٥-٧٧] انظر كيف كان يكلمهم حتى جاء الكلام عن الله فبدأ يستفيض {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ

يُحْيِينِ}[الشعراء ٧٨-٨١] وانتبه؛ هذا الكلام قاله أثناء كلامه معهم فكأنه انشغل بالله عنهم {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[الشعراء ٨٠-٨٣] انظر؛ كأنه تركهم وجلس يدعو الله! أريدك أن تتخيل معي تسلسل الآيات؛ كان يتكلم معهم يقولون له كلمة فيرد عليهم، فجاء الكلام عن الله فاستفاض! فقد أتى كلام الحبيب عن حبيبه، فاستفاض في الكلام عن الله واستفاض واستفاض واستفاض وكأنه نسي أنه يخاطبهم وانشغل بالله.

وهذه من سمات الداعية الحق الذي يكثر في كلامه عن الله، لا ينشغل بنفسه، ولا ينشغل كثيرًا بصرف التهم عن نفسه، ولكن ينشغل كثيرًا بصرف الناس إلى الله، فتجده يتكلم تفصيلًا عن صفات الله، ويعيش مع صفات الله حتى كأنه انشغل بالله عنهم، تجد أنك تقرأ الآيات فتجد (قل) تأتي متكررة **وفجأة عندما يأتي الكلام عن الله تشعر بالسكينة قد نزلت**، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم تركهم تمامًا -مع أن الحوار ما زال دائرًا- {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا}[الأنعام ٦٥] يعني هذه كانت مجادلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم، لكن لما أتى الكلام عن الله استفاض، كلام الحبيب عن حبيبه؛ فلا يستطيع أن يتكلم كلمتين فقط! ولله المثل الأعلى؛ عندما يحب شخص شخصًا ثم يأتي ذكره تجده لا يستطيع أن يقتضب في الكلام بل يسهب في الكلام عن حبيبه، فكذلك لما جاء الكلام عن الله استفاض في الكلام عن الله

{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} هذه وقفات مجملة مع الآية، نأتي للتفصيل.

{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} النبي صلى الله عليه وسلم هنا يتكلم عن ربه عن مولاه، عن سيده، عن حبيبه وهو يجادل المشركين. {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[الأنعام ٥٩]

عندنا {مفاتح الغيب} -ركزوا معي في الآية-

عندنا {ما في البر والبحر}،

عندنا "الورقة التي تسقط"،

عندنا "الحبة التي في الظلمات"،

عندنا "الرطب واليابس"...

لدينا خمسة أشياء في الآية: مفاتح الغيب، ما في البر والبحر، ورقة تسقط، حبة في الظلمات، رطب ويابس. هذا التفصيل بالتأكيد له حكمة... نعم هو دليل سعة العلم، لكن لماذا اختيار هذه الأشياء في الكون؟ هذا بالتأكيد أيضًا له حكمة.

بدأ بالغيب، وهذا دائمًا البداية مع المؤمن، لو أي أحد لم يستوعب ويؤمن أن هناك غيب معناه لن يكمل في طريق الدين، مشكلة الملحدين أنهم من أول لحظة هو مقرر أنه لا يوجد شيء اسمه غيب فلا ينتقل معك للخطوة التالية؛ لذلك أول وصف في صفات أهل الإيمان في أول القرآن في سورة البقرة: {ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب}[البقرة ١-٣] أي: لن يكون في هذا الكتاب هدىً إلا للمؤمنين بالغيب {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب}[البقرة٣-٤] لن يُهدى به إلا من يؤمن بالغيب، كلما يزداد يقينك في الغيب تزداد هدايةً بالقرآن. وكلما كنت إنسانًا ماديًّا مثل بني إسرائيل {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}[البقرة ٥٥] – والعياذ بالله– كأن تقول: أرى شيئًا في يدي أولًا ثم أصدقك، فاعلم أنك هكذا تُباعَد عن الإيمان، لكن كلما يزداد يقينك في الغيب تقترب من هداية القرآن.

إذًا؛ بدأ بالغيب ويُعْلمهم أنه لا بد أن تُقروا بأن هناك غيب، مهما بلغ الإنسان من عقل وتقدم. لذلك أغلب نزعات العالم الآن التي أدت للإلحاد أنه يقول لك إن الغيب هذا ادعاء الجهلة، يقولون ذلك، وكتب تؤلف أن الإنسان يستطيع أن يقوم بذاته، أي: بدون إله! كتب كثيرة تُؤلف عن الغيب ذلك الجهل المطلق، كل هذه كتب يؤلفها ملحدون تقول إن الذين يقولون هناك غيب هؤلاء جهلة!، فأنت تسأله عن أشياء هو لا يستطيع أن يفسرها، يقول لك نحن سنفسرها، لا يقول إن شاء الله –طبعًا– يقولون نحن سنفسرها، نحن سنبذل، أي سر نحن سنصل إليه، "وآن للإنسان أن يلقي عبء الغيب عن عاتقه" كلمة مشهورة لأحد الملحدين. لكن المؤمن هو من يؤمن بالغيب.

أركان الإيمان الستة أغلبها غيب، إن لم تكن كلها لها أبعاد غيبية، حتى الرسل لها بعد غيبي أن تصدق أن هذا الرسول بالرغم أنك تراه بشرًا أمامك طبيعي، لكن أنت تصدق أن هناك رسالة جاءت له من

السماء، أنه هناك مَلك ينزل عليه حتى لو لم تراه.الإسلام استسلام بالجوارح، تقوم بأعمال ؛أما أركان الإيمان فأن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، أركان الإيمان كلها غيب.

الله –عز وجل – عنده مفاتح الغيب... كأن الغيب هذا خزائن، أقسام ولها مفاتيح وهذه المفاتيح لا يملكها إلا الله، لا يَطَّلع على ما في خزانة الغيب إلا من يريد الله عز وجل، وهناك خزائن لا يطَّلع عليها أحد، لا مَلك مقرب ولا نبي مرسل، وهناك خزائن يسمح الله عز وجل بالاطلاع عليها لبعض المخلوقات دون بعض مثل: الملائكة وبعض الأنبياء، وهناك خزائن يسمح الله عز وجل لبعض البشر أن يطلعوا عليها: فيفهمهم سننه، هذا هو التقدم الدنيوي، يكتشف أشياء كانت بالنسبة له غيب.

فهناك غيب يُسمح به، وهناك غيب لا يُسمح به أبدًا، وهناك غيب نسبيّ لأشخاص دون أشخاص أو لمخلوقات دون مخلوقات، وبعضهم قال: الغيب هنا وهذه المفاتح يقصد بها التي لا يعلمها إلا الله وفُسرت كما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بآية لقمان[٢]: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}[لقمان ٣٤].

عندما ننظر في هذه الخمسة– س. لقمان–تفصيلاً ستجد أنهم متصلين بالآخرة {إن الله عنده علم الساعة} {وينزل الغيث} ينزل الغيث: هذا مثال لحركة الأرزاق في الأرض، ينزل الغيث هذا مثال للرزق، أي ليس فقط المقصود به مجرد نزول مطر، لا؛ بل إن الله عز وجل خلق دورات كونية مثل: دورة نزول المطر، دورة النباتات، دورة الحيوانات، أن هناك حيوانات تتغذى على نباتات، وهناك نباتات تتغذى على عناصر معينة، وحيوانات تتغذى على حيوانات، وأن الإنسان يأكل كذا، هذه دورات ربنا قدرَّها بطريقة معينة لا يعلم هذا التدبير المطلق إلا الله، {وينزل الغيث}. {ويعلم ما في الأرحام} حركة الولادة التي هي الإحياء {وما تدري نفس}.

انتبه؛ في ترتيب الآيات لو بدأنا من {ينزل الغيث} إذًا؛ كأن الله عز وجل يقول إنه مهَّد الكون للإنسان وخلق له رزقه قبل أن يأتي، {ويعلم ما في الأرحام} الإنسان يُولد {وما تدري نفس ماذا تكسب} الإنسان الذي يُولد يبحث عن رزقه الذي خلقه له ربنا من قبل أن يُوجد، معي في الترتيب؟

[٢] عن عبد الله بن عمر عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مفاتيح الغيب خمس، ثم قرأ :{إن الله عنده علم الساعة}" . البخاري(٢٥٦هـ)، صحيح البخاري ٤٧٧٨. [صحيح]

مرة أخرى، الآية ذكرت خمسة عناصر، نركز في ترتيبها {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت}[لقمان ٣٤]، لماذا هذا الترتيب في الخمسة أشياء؟

ابدأ معي من الثانية التي هي {ينزل الغيث} قلنا ما معنى ينزل الغيث؟ ينزل الغيث هذا تدبير الله عز وجل لأرزاق الناس، أن الله عز وجل وضع عناصر الرزق ينزل له مطر ويخرج له نبات، الله عز وجل فعل هذا، مهَّد الأرض للإنسان ليعيش فيها، الله عز وجل لم يفعل ذلك في المريخ، الله عز وجل فعل ذلك في الأرض، فالله عز وجل مهَّد الرزق للإنسان قبل أن يأتي أصلاً. وجاء بعدها {ويعلم ما في الأرحام} الإنسان هنا يُولد ثم {وما تدري نفس ماذا تكسب غدا } الإنسان بعدما يُولد يبحث عن رزقه الذي ضمنه له ربنا قبل أن يأتي، بعد ذلك الإنسان وهو يبحث عن رزقه ومشغول برزقه فجأة يموت، {وما تدري نفس بأي أرض تموت} كان المتوقع هنا أن يأتي بعد كل هذا {عنده علم الساعة}، كان المتوقع أن الترتيب يبدأ بأن الله عز وجل مهَّد لنا رزقنا من قبل أن نأتي، ثم وُلدنا من الأرحام، وبعد ذلك بحثنا عن رزقنا، وبعد ذلك متنا، وبعد ذلك جاءت الساعة، لكن الله عز وجل بدأ بالساعة لأن هذا أهم شيء.

كأن الإنسان لا بد أن يعلم أن هناك ساعة، قبل أنه يبدأ أي شيء في حياته، لا بد أن يوقن أنه يوجد ساعة أولا، لأن هذه هي الغاية من هذه الدورة كلها، ليست القضية أنك تبحث عن رزق دنيوي فقط!...هذه خمس مفاتيح خزائن لا يعلمها إلا الله، الله الذي يستأثر بها لا يطلع عليها أحد، هذه هي قصة الغيب... مفاتح الغيب.

{لا يعلمها إلا هو **ويعلم ما في البر والبحر**}[الأنعام ٥٩] هنا انتقلنا إلى عالم الشهادة، الانتقال من عالم الغيب إلى عالم الشهادة المفتوح الواسع، كلمة {ما في البر والبحر} لذلك لما قال: {مفاتح الغيب} جاء بعدها {لا يعلمها إلا هو}، ولما جاء {يعلم ما في البر والبحر} لم يقل: لا يعلمها إلا هو! لأن ما في البر والبحر مكشوف للناس، لكن أن يحيط أحد بكل ما في البر والبحر هذه لا تكون إلا لله عز وجل، أن أحداً في نفس اللحظة يحيط علمًا بما يجري الآن في أمريكا الجنوبية وأستراليا وفي أمريكا الشمالية وفي جنوب أفريقيا وفي قاع المحيطات وفي الأراضي الزراعية الآن في نفس اللحظة، يسمع كل الكلام الذي يدور في الأرض في نفس اللحظة، يرزق كل الكائنات التي في الأرض في نفس

اللحظة، يدبر حركة الأكوان في نفس اللحظة، هذه ليست إلا لله، {كل يوم هو في شأن}[الرحمن ٢٩] سبحانه وتعالى، هذه لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى.

{ويعلم ما في البر والبحر} إذًا؛ انتقلنا من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والاثنين مبنيان على فكرة الاتساع المطلق {مفاتح الغيب} {ما في البر والبحر}.

نأتي بعد ذلك لمشهد السقوط المكتوب على ابن آدم؛ مهما علا لا بد أن يسقط، وأي شيء في الدنيا مهما بلغ من الارتفاع لا بد أن يسقط، **{وما تسقط من ورقة}** هذا مشهد الموت مشهد السقوط، إن أي شيء سيرتفع في الكون لا بد أن يسقط. لذلك لما سيدنا إبراهيم رأى القمر يأفل قال {لا أحب الآفلين}[الأنعام ٧٦]، لا يصح أن إلهي يأفل ويتركني ويغيب! فكل ما في الكون يأفل، الشباب تأتي عليه فترة ويهرم، السيارة المصنعة حديثًا في المصنع وتكون رائعة أمام الناس كلها، تأتي عليها فترة والإنسان يُحرج أن يركب السيارة بعد ثلاثين أو أربعين سنة يُحرج أن يركبها، كل شيء يسقط. إذًا هذه هي الحياة الدنيا، فالله عز وجل اختار لنا مشهد سقوط شيء عديم القيمة؛ وهي ورقة تسقط، لماذا؟ لأن الذي يحيط علمًا بهذه الورقة يحيط علمًا بما هو أعلى منها.

إذًا؛ هناك **خمسة مشاهد في الآية**:

- المشهد الأول: الغيب.
- المشهد الثاني: عالم الشهادة المفتوح.
- المشهد الثالث: مشهد الموت، مشهد سقوط الورقة، مشهد أفول النجم، مشهد المذنَّب الذي يختفي، مشهد الذرات التي تخرج إشعاعات وتذهب، مشهد إنسان كبر ثم توفى،
- مشهد السقوط، مشهد الموت {وما تسقط من ورقة إلا يعلمها}.
- أما **{ولا حبة في ظلمات الارض}** ما هو هذا المشهد؟ إنه مشهد الإحياء، وهذا عكس الموت. مشهد البذرة التي مازالت في الظلمات ولم تخرج بعد، وهذا كمشهد {ما في الارحام}، وهذا يعني أن مشهد {ولا حبة في ظلمات الارض} عكس مشهد {وما تسقط من ورقة} أي أن الله ذكر لنا النهاية قبل البداية، فنجد أن كل حبة في الظلمات لم تخرج بعد، كل نطفة موجودة بداخل الرحم لم تتحول إلى جنين بعد، كل بذرة لم تُخرج نبتة بعد، كل بيضة سوف تخرج حيوان، كل هذا يعلمه الله عز وجل ويدبره الله عز وجل. لكن الله عز وجل ضرب المثل

بأقل الأشياء قيمة! وذلك لأن الذي يحيط علما بهذه الأشياء ويدبرها يمكنه تدبير ما هو أعلى منها.

{وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض **ولارطب ولا يابس**}[الأنعام ٥٩] هناك رطب ويابس، وهذا يقصد به التفاوت الموجود في الكون، فكل شيء في الدنيا فيه تفاوت، هناك تفاوت في النضج وتفاوت في الصلابة، وهناك تفاوت في الخصائص وتفاوت بين الشخص والشخص الآخر؛ أي تفاوت في نفس الجنس، بين الإنسان وغيره من البشر يوجد بينهم تفاوت، بين النباتات يوجد تفاوت، وبين الحيوانات أيضًا، هذه التفاوتات يعلمها الله، هناك تفاوت بين الذرات وبين العناصر الكيميائية، أي أن هناك تفاوت ما بين كل شيء في الكون، بل وهناك تفاوت بين هذه الاختلافات، كلها يعلمها الله عز وجل يعلم إن كان هذا رطب أو يابس، وإن كان هذا صلب أو غاز، كما أنه يعلم أن هذا شديد وهذا لين، هذه التفاوتات يعلمها الله.

فكأن هذه الأمثلة الخمسة ذكرها الله عز وجل لكي تبين لنا كم أن هذا الكون واسع، أن الله عز وجل يحيط علمًا بكل هذه الأشياء، فمن يفقه اللغة ويسمع هذه الأمثال ويعيش مع كل آية بمفردها قليلًا سينبهر أن هناك إله يحيط علمًا بكل هذه الأمور في وقت واحد، سبحانه وتعالى يسمع الأصوات كلها في وقت واحد، كل الأوراق التي تسقط يحيط بها علمًا في وقت واحد، كل الحبوب التي في الأرض يحيط بها علمًا في وقت واحد، كل الاختلافات التي بين الناس يحيط بها علمًا في وقت واحد، سبحانه وتعالى{ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}[الأنعام ٥٩].

جاءت هذه الآية بعدما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم حدد لنا معاد نزول العذاب، أو حدد لنا معاد الآية التي ستأتي فقال لهم: {مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}[الأنعام ٥٨]، فالذي يعلم بالورقة وهي تسقط وقام بتحديد ميعاد سقوطها؛ وذلك لأنها لم تسقط إلا عندما انتهى أجلها، ولم ينتهى أجلها إلا عندما قدر الله أن رزقها توقف، فالله قدر أن كمية ثاني أوكسيد الكربون والضوء الذي يصل لها أن يتوقف ولذلك سقطت. الله عز وجل قَدَّر أن هناك غذاء سيصل إلى الحبة التي في الظلمات فقدر أنها تنمو.

ولذلك الذي أحاط علمًا بهذه التدابير في هذا الكون، هو أعلم بوقت نزول العذاب عليكم، ولذلك من سمع هذه الآية وكان من المشركين ظن أنه ما زال هناك سعة من الوقت، ولذلك يقول له الله في الآية التي تتبعها: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ...}[الأنعام ٦٠] فليس معنى أن العذاب لم ينزل الآن أنكم بعيدون عن الحساب، ولكنك محاط كما أن هذا الكون محاط بقدرة الله فأنت محاط وعليك رقابة {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً}[الأنعام ٦١] -مثلما سيأتي معنا في الآية- نموذج للبعث! فإذا كنت تظن أن الموت بعيد فيخبرك الله أنك تموت يوميًا (باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[٣]، ما معنى أن يمسك الله نفسي؟ أي أمسكتها عندك. وكأنك كل يوم عندما تنام تصعد نفسك عند الله، فكأنك أنت يوميًا وأنت تقول يا رب لو أمسكت نفسي عندك ولم تنزلها ارحمها وإذا أعدتها إليّ (وإن أرسلتها) أي عادت لجسدي فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. أي لا ترجعها لي سيئة يا رب بل أعدها طيبة.

تخيل هذا الشعور وأنت يوميًا تسلم نفسك إلى الله وتقول له يا رب إن لم تُعد لي نفسي ارحمها ولو أذنت لها بالعودة احفظها، **وكأنك يوميًا تستودع نفسك عند الله**، {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} ولذلك فأنت لست بعيدًا عن قبضة الله، أنت لست بعيدًا عن قدرة الله، ولست بعيدًا عن هيمنة الله -سبحانه وتعالى- أنت لست بعيد عن كل هذا، ولذلك أنتم تتساءلون أين العذاب؟ متي سينزل العذاب؟ ودائمًا ما تكون الردود على الاستعجال بالعذاب برد مخصص، فيقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم {لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}[الأنعام ٥٨-٥٩]، فالذي يستعجل العذاب يشعر أنه غير مراقب، يشعر إنه يعيش في راحة، يشعر أنه يفعل ما يريد، ولذلك عليك أن تُشعر من يستعجل بالعذاب إنه محاط {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}[العنكبوت ٥٤] الذي يستعجل بالعذاب يجب أن يتم الضغط عليه نفسيًا ليشعر أنه محاط ومراقب، ولذلك جاءت الآية هنا لمن يستعجل بالعذاب أنه **محاط بعلم الله** وهي آية {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}، أما الآية الثانية فتخبره أنه **محاط بين الليل والنهار** {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}، والآية التي تليها بعد ذلك تخبره أنه محاط بالحفظة {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً}، ثم الآية التي تليها هي [الآية: ٦٥]، وأنه محاط بعذاب من فوقه أو من تحت قدمه {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}[الأنعام ٦٥]، الآيات

[٣] مسلم(٢٦١هـ)، صحيح مسلم ٢٧١٤. [صحيح]

كلها فيها نوع من الإحاطة. ولذلك عندما تجد شخص ما يستخف ويقول: أنتم يا مسلمون مهزومون في كل مكان...أين العذاب الذي تتوعدوننا به... أرني إياه؟... من يستخف بالحق وبنزول العذاب تناسبه هذه الآيات التي بها شعور الإحاطة، فأنت يجب أن تشعره أنه محاط، **الله عز وجل يحيط به علمًا وقدرة وهيمنة واطلاعًا وحفظًا وكل شيء، لكي تشعره أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل،** فعليك أن توصل له هذا المعنى، ولكن من خلال طرح صفات الله سبحانه تعالي.

{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}[الأنعام ٦٠] إن لفظ {جرحتم} أغلب العلماء حملوه هنا على اكتساب الآثام، ولقد جاء هذا اللفظ بصيغة أقوى من هذه في سورة الجاثية {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[الجاثية ٢١]. فهناك جاءت واضحة {اجترحوا السيئات}، وفي سورة الأنعام جاءت من غير وزن الافتعال جاءت فقط {جرحتم بالنهار}، والجرح هذا قالوا أن معناه: استخدام الجارحة، أو عندما تقوم بعمل شيء قد تجرح، لذلك الكلب عندما يصطاد يجرح دون إرادته، لذلك كلاب الصيد تُسمى بالجوارح، هذه الكلاب المدربة للصيد يسمونها الجوارح لأنها تجرح وهي تصطاد، فكذلك الإنسان **كل معصية يقوم بها عبارة عن جرح يحدثه في الكون**، فهو فساد يفعله في الكون، كل معصية، كل كلمة فساد تقولها هي جرح في الكون {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}[الروم ٤١] لماذا؟ لأنهم يجرحوا في الكون، السماوات تكاد تتفطر بسبب الكلمات {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً}[مريم ٨٨-٩٠] وذلك لأنهم يجرحوا في الكون، فكل معصية هي إفساد؛ إفساد للبركة، إفساد للأرزاق، إفساد للناس، إفساد لنفسك، إفساد لنفوس الآخرين.

فالله يقول: أنت في الليل أنا أمسك نفسك {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} وفي النهار كل شيء تقوم به أنا محيط به وكل أفعالك أعلمها، فأين ستذهب مني؟! {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}[التكوير ٢٦] ... إذًا الآية التي قبلها هي إحاطة علم غير عادية {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}، وفي هذه الآية الله يقول لك أنه أثناء الليل وأنت نائم، أنا أمسك نفسك وأتوفاك كل يوم، وبالتالي فأنت تحت قبضة الله وتحت قدرة الله، فأين ستذهب، وحتى أثناء النهار وأنت تتحرك وتسعى ولكن ذلك لا يعني أنك بدون رقابة، بل إن كل شيء تفعله يعلمه الله. والله لم يقل: ويعلم ما اجترحتم لأن "اجترحتم" تدل على الكبائر، ولكن قال: {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} فأي معصية صغيرة، أي إشارة غيبة أو أي فعل مهما صغر يعلمه الله.

{وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى}[الأنعام ٦٠] قيل أن {ثم} معطوفة على {يتوفاكم بالليل}. **هناك تفسيرين للآية:**

- جمهور المفسرين يقولون أن معنى الآية أن الله يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم في النهار...كأن الآية تقول: {يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار} ثم تعودون للنوم مرة أخرى –هذه محذوفة– ثم يبعثكم فيه؛ أي في النهار؛ {فيه} الهاء تعود على النهار، هذا قول جمهور المفسرين، {ثم يبعثكم} بمعنى يوقظكم، فكما سمى الله عز وجل النوم وفاة سمى الاستيقاظ بعثاً. {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه} أي في النهار، أي ثم يوقظكم في النهار {ليقضى أجل مسمى} أي تستمر هذه الدورة إلى أن يأتي أجل معين. كونك تستعجل بالعذاب وأنت مُمْهَل، لا يعني أنك ستبقى هكذا...كما قالوا {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ}[الجاثية ٢٤] كلا، لا يلزم أنك بعدما تعودت أن تنام وتستيقظ ثم تنام وتستيقظ أن الموضوع سيستمر بلا نهاية، ستظل في هذه الدورة إلى أن يُقضى أجل مسمى. **{إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}** [مريم ٨٤] **قيل: بعدد الأنفاس، أي أن كل شخص عمره الزمني محسوب بعدد الأنفاس،** تخيل لو أن لك مثلًا (سبعة مليار وخمسمئة مليون وأربعمئة ألف ومئتين) نَفَس عندما ينتهون لا يوجد نَفَس بعدهم وستموت. {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}[مريم ٨٤] ليس بالأيام ولا بالساعات بل بالنَفَس، انظر الدقة؛ لذلك ستأتي الآية: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ}[الأنعام ٦١] يقول: زد لي نفسا واحدًا. غير ممكن؛ ولا دقيقة واحدة. انتهى الأمر {وهم لا يفرطون}.

{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[الأنعام ٦٠] هذه تناسب {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} ينبئكم بما كنتم تجرحون، ينبئكم بما اجترحتم من أعمال فاسدة، هذا هو المعنى الأشهر الذي عليه جمهور المفسرين.

- الزمخشري وقلة قليلة خالفوا؛ {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} قال: (فيه) أي: "في يوم القيامة". ماذا قال في معنى الآية؟ قال: "حياتكم دائرة بين – تعبير الزمخشري قاسي نوعًا ما– نوم البهائم ويقظة الحيوانات، لا تفكرون إلا فيما ترون"، لأن الآية التي قبلها {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} فالذي لا يؤمن بالغيب هم الحيوانات، الحيوانات لا

تؤمن إلا بما ترى... كما جاء في للحديث(حمار بالنهار جيفة بالليل)[٤] قال هذا هو معنى الآية. {يتوفاكم بالليل} قال: أنه يقع ميتا بالليل كأنه جيفة، لا يوجد ذكر ولا أي عبادة كأنه ميت بالليل، وبالنهار كله جرح، كله فساد ولا توجد أي أعمال صالحة {ويعلم ما جرحتم بالنهار} ويعيش في هذه الحياة غافلًا حتى يأتي يوم القيامة{لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} المعنيان متقاربان لكن الخلاف الأساسي في {يبعثكم فيه} الهاء تعود على ماذا؟ الجمهور قال أن الهاء تعود على النهار، والزمخشري قال أن هذه الهاء تعود على يوم القيامة.

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ}[الأنعام ٦١] تكلمنا بالتفصيل عن اسم الله القاهر عندما مر معنا في أول السورة {وهو القاهر فوق عباده} نفس المقطع جاء في أول السورة وتكلمنا عن قهر الله عز وجل وقلنا أن من **أعلى صور القهر قضيتان: النوم والموت**، وهما اللذان وردا في الآية السابقة.

الإنسان خاضع لقهر الله، خلاصة كلام الدرس السابق أن القهر هو أن تفعل شيئًا خلاف ما تريد، وأن الذي يقهر إنسانًا إرادته هي التي تمضي... عند تعارض الإرادات، إرادة ضد إرادة، الإرادة التي تنفذ نقول عنها أنها قهرت الإرادة الأخرى. فالقهر يتعلق بأنك تريد شيئًا والله يريد شيئًا وما يريده الله هو الذي يكون رغمًا عنك، مهما أوتيت من أسباب، مهما أوتي الإنسان من تقدم وأسباب ستظل هناك أشياء هو مقهور فيها رغمًا عنه... رغمًا عنه سيدخل الخلاء لأنه مقهور في هذا، ورغمًا عنه سينام.

كان هناك بحث يقولون أن هناك حد أقصى إذا أمضاه الإنسان دون نوم سيُجنّ –لا أتذكر بالضبط أهي ثمان أيام أو غير ذلك–، يصاب بالجنون، لا بدّ أن ينام رغمًا عنه، لكن الله عز وجل لا تأخذه سنة ولا نوم. لذلك إذا أردت أن تنام تقول آية الكرسي {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ}[البقرة ٢٥٥] وأنت تريد أن تنام تقول أنا ربي لا ينام سبحانه وتعالى. مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما غاب القمر قال: {لا أحب الآفلين}[الأنعام ٧٦]، كيف يمكن أن يكون القمر إلهًا ! أنا أنام ولكن ربي من المفترض ألا ينام! لأن الانسان يحتاج إلى الله في كل لحظة. من سيحفظني وأنا نائم؟

[٤] عن أبي هريرة: "إن الله يبغض كل جعظري جواظ سخاب بالأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة". ابن حبان(٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان ٧٢. ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ٢٣٠٤

فالإنسان وهو نائم يطمئن أن له ربّاً لا ينام، هو مطمئن بذلك ويّذكِّر نفسه بهذه الحقيقة وأنه مقهور بذلك. فجاءت بعد آية النوم {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ...}

{...وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً}. كونكم تستعجلون بالعذاب والعذاب لم ينزل عليكم لا يعني أن أعمالكم ستضيع. كما قال ربنا في الآية التي قبلها: {ويعلم ما جرحتم بالنهار} أعمالكم هذه تحصيها عليكم الحفظة، {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ} وهذه الآية كأن فيها إشارة إلى أن العذاب العام الذي أنتم تستعجلونه لن يحدث ولكنكم ستحشرون فرادى وستحاسبون {حتى إذا جاء أحدكم} هم يستعجلون ويقولون: أرنا آية أو أنزل علينا عذابًا عامًا، ألست تقول أنك نبي كالأنبياء السابقين!، إذاً ائت لنا بطوفان يغرق العالم كله أو أنزل عذابًا عامًا.

{وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[الأنفال ٣٢] عذاب عام. فهذه الآية إشارة إلى أن ما تستعجلون عليه من العذاب في هذه الأمة لن يأتي عامًا على الأمة، هذه الأمة لن تهلك بأكملها وهذا وعد من ربنا سبحانه وتعالى لنا ولكن قد يهلك جزء منها، أو أنك ستموت وتلقى هذا العذاب في الآخرة {إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}. الخطاب كله هنا عام "يتوفاكم، جرحتم، يبعثكم" أيضا في البعث {ثم ردوا}، لكن عند الحديث عن الموت: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ} بعد ذلك {ثُمَّ رُدُّوا} عادت صيغة الجمع مرة أخرى. إذاً الآية كلها بصيغة الجمع المخاطبين إلا لحظة الموت وكلمة {جاء أحدكم}، واحد منكم هو الذي سيُخطف فجأة، من؟ لا نعلم، وهذا من أسلوب القرآن التخويفي {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ} واحد منكم سيموت... من؟ هو لا يعلم، لكن أحدكم سيُخطف وسيرى تأويل هذا الكلام ثم الذي بعده ثم الذي بعده... وهكذا{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ} أي لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، مهما طلب أن يُمد في عمره لن يمهل. {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ}[الأنعام ٦٢] الذي يجادلون فيه، في وجوده أو في قدرته أو في شرعه{... أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}[الأنعام ٦٢] له الحكم، مثل الآية الأخرى: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ}[الأنعام ٥٧]، هنا {ألا له الحكم} أي: يحكم متى ينزل العذاب ويحكم من منكم سوف يموت ويحكم من منكم سوف يدخل النار ويحكم متى يموت فلان {أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} لا تتعجلوا سوف يأتي العذاب وسوف يأتي الحساب فلا تتعجلوه.

من ينجيكم من ظلمات

{قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ}[الأنعام ٦٣] نفس الأسلوب الذي نتكلم عنه، الإنسان فيه فطرة الضعف لذلك دائمًا القرآن يصور لك مشهدك وأنت داخل لحظات الضعف... {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر} وقبلها الآية: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[الأنعام ٥٩] إذاً الذي كان مع الحبة في ظلمات الأرض قادر على أن يكون معك وأن ينقذك في ظلمات البر والبحر.

{من ينجيكم من ظلمات البر والبحر}، قيل أن الظلمات هنا ليس المقصود بها مجرد الظلام، قيل: تعني الأهوال... يمكن أن توضع في موقف تجتمع عليك أهوال سواء في البر أو في البحر! من الذي يستطيع الوصول إليك؟

سيدنا يونس عندما ابتلعه الحوت ونزل به في قاع البحر، في ظلمة بطن الحوت في ظلمة قاع البحر في ظلمة الليل، من الذي يستطيع الوصول إليه؟ لهذا قال سيدنا يونس (لا إله إلا أنت)[الأنبياء ٨٧] لا أحد يستطيع الوصول إلي أو يسمعني سواك يا الله! أريدك أن تتخيل معي، من هذا الذي يستطيع الوصول إليه؟ حتى لو افترضنا وجود هاتف معك وهناك أيضًا شبكة، وتستطيع التواصل مع أحدهم، لكن من الذي يستطيع أن يأمر إنزيمات الحوت بألا تهضمك؟! من الذي سيصل إليك في هذا المكان؟! لهذا قال: (لا إله إلا أنت)! لو كان هناك بشر وصل إليك من خلال جهاز تصنت من الذي سينجيك في هذه الظلمات الخاطفة؟!

هناك لحظات تمر بالإنسان يكون فيها هالك لا محالة إلا أن تدركه رحمة الله عز وجل ﴿لَولا أَن تَدارَكَهُ نِعمَةٌ مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ وَهُوَ مَذمومٌ}[القلم ٤٩] أي إن لم تدركه رحمة الله فهو هالك لا محالة. الإنسان وهو يسير على الطريق إذا غفل لحظة واحدة يمكن أن يصاب بحادث. من الذي يستطيع إنقاذه في هذه اللحظة؟ لا أحد غير الله. والكثير من اللحظات في حياة الإنسان بهذا الشكل! حين يتجمد الدم في المخ؛ من الذي يستطيع إسالتها مرة أخرى؟ الإنسان عاجز أمام أشياء كثيرة جدا جدا.

{من ينجيكم من ظلمات البر والبحر}؟ كل إنسان يسأل نفسه؛ مَن؟ مهما بلغ الإنسان من قوة وتقدم وسلاح ستمر عليه لحظات الضعف هذه إلى أن يموت، وإلى أن تقوم الساعة. {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر}.

{تدعونه} الآن عرفت أن الله موجود! مثلما قال فرعون في هذه اللحظة: {آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ}[يونس ٩٠]؟ كل هذه الآيات لم تؤثر فيك؟! ففي لحظات الضعف هذه الإنسان تلقائيًا يتذكر الله!!!

فالإنسان مهما كان عاصي وفاسق إذا مرت به ضائقة ما تَظهر فطرته على الفور فيقول: يا رب.

{قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية}[الأنعام ٦٣]، {تضرعا وخفية} قيل: أنه يجأر بصوت عالي أو خفية، وقيل تضرعًا وخفية الاثنين بمعنى واحد وهو السر، وقيل: أن الإنسان في لحظات الكرب لا ينشغل بنظر الناس له، فيجأر لله دون أن ينشغل بنظر الناس، هو يريد الخروج من هذا الحال وفقط. فالذي يغرق حتى لو كان كافرًا سيقول يا رب، ولا يأبه لمن يسأله هل غيرت منهجك! كل ما يريده في هذه اللحظات أن ينجو! {تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين}[الأنعام ٦٣] كان المتوقع أن الآية التي تليها تكون: "قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم **لا تشكرون**". ولكن تُفاجأ أن الآية {**ثم أنتم تشركون**}[الأنعام ٦٤] انظر لشدة الفُجر بعد أن قال {لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين} يعد أنه سيكون في قمة الشكر! فكان متوقع أنه عندما ينقض عهده لن يشكر الله- على أقصى تقدير-، ولكنه أشرك بالله!

قالوا معنى هذه الآية أنه نسب الإنجاء الذي حدث إلى غير الله. {ثم أنتم تشركون} أي تنسبون أن من أنجاكم من ظلمات البر والبحر هي آلهتكم أو هي أسبابكم أو قوتكم؛ تخيل ! ويدخل مرة أخرى في ظلمات البر والبحر، ويقول: يا رب لن أفعل هذا مرة ثانية، ويخرجه الله من ظلمات البر والبحر ولكن بعدها {ثم أنتم تشركون}.

{ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم..} [الأنعام ٦٥]

أكبر سبب لفهم القرآن هو السياق القرآني...سياق الآيات، الإمام الطبري أكثر ما يعول عليه لفهم القرآن هو ترتيب وسياق الآيات. لن تعيش مع كلمة {رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين}[الشعراء

٨٣] إلا بعدما ترى السياق مع قصة سيدنا إبراهيم، وأنه كان يجادل ثم تكلم عن الله ثم نسي أنه يجادلهم ورفع يده للدعاء... فالسياق يعطي معنى آخر للجملة.

فكلمة: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم}[الأنعام ٦٥] هي تكملة الحديث عن أناس كانوا في منتصف البحر، ودعوا وتضرعوا لله لينجيهم، ثم نجاهم ثم أشركوا! فكأن الله يقول هل أنت بعد شركك مطمئن وأنت على البر؟! هل بوصولك إلى البر خرجت بعيدا عن قدرة الله؟! {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم} هل تعتقد أنك عندما تخرج من ظلمات البر والبحر أمِنت من قدرة الله عليك وإرادته؟! هل أنت معتقد أن هذه الأزمة عندما تمر على خير لن تدخل في أزمة أخرى؟!... لا؛ فالعذاب يمكن أن يأتيك من فوقك {من فوقكم} وهذا عذاب إحاطة، و{ومن تحت أرجلكم} هذه هي المباغتة. وهذا لا يستطيع الإنسان النجاة منه؛ لا لحظات المباغتة ولا الإحاطة. مثل صاحب الجنتين عندما قال {ما أظن أن تبيد هذه أبدا}[الكهف ٣٥] فقال الله عز وجل: {وأحيط بثمره}[الكهف ٤٢] أحيط فلم يستطع فعل شيء، فاجتمع على صاحب الجنتين المباغتة والإحاطة. لذلك المؤمن وهو يخاطب صاحب الجنتين قال: {عسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا}[الكهف ٤٠-٤١] فذكر أنواع العذاب من فوقه ومن تحته، {فلن تستطيع له طلبا}[الكهف ٤١] فعذاب الإحاطة مع المباغتة لا يستطيع الإنسان الهروب منهم.

{قل هو القادر} أنت يا مشرك نجوت من ظلمات البر والبحر، نجوت من الأزمة، نجوت من الحرب هل أنت تعتقد أنك بعيد عن قدرة الله عز وجل؟! {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت أرجلكم}[الأنعام ٦٥].

والجمال في تكملة الآية، قوله تعالى: {أو يلبسكم شيعًا}. فهو يعتقد أن معه الأدوات والتمكين والأسلحة والتقدم الدنيوي، فلذلك يظن أنه يستطيع صد العذاب سواء كان من فوقه أو من تحته! فكأن الله عز وجل يقول له: لا؛ بل يمكن أن يأتيك العذاب من حيث لا تتخيل، كيف؟ {أو يلبسكم شيعًا} أي يخلط بينكم وبين بعضكم ويجعلكم متنازعين، ويجعلكم شيعًا! الله عز وجل سوف يأتيك من حيث لا تحتسب، سيفرق قلوبكم، وسيجعلكم تتنازعون، وسيجعل التقدم الذي وصلتم له سبيل لفتك بعضكم ببعض.

لماذا جاء قوله تعالى: {أو يلبسكم شيعا} بعد قوله تعالى: {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم}؟...هذا المشرك قال أنا أمتلك الأسلحة والتقدم وأي زلزال أو صاعقة أستطيع التصدي لها، وبالتالي يظن أنه لا يمكن لأي عقوبة أن تصيبه! إذًا؛ سلاحك هذا ستقتل به نفسك كما قال تعالى في سورة الحشر{يخربون بيوتهم بأيديهم}[الحشر ٢]، {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا}[الحشر ٢]...

هنا يقول تعالى{أو يلبسكم شيعا} أي يقذف في قلوبكم كره بعضكم البعض، فأنت لا تملك قلبك! فيُفرق بينكم وتكونوا شيعًا وتستخدموا أعتى الأسئلة في قتل بعضكم البعض، فيكون الشيء الذي اخترعته ليحميك هو الذي يقتلك! {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} أي يخلط بينكم وتكونون شيعًا.

والشيعة: أي التعصب المبني على عقيدة؛ ليس أي تعصب. لذلك {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا}[القصص ٤] وقتها فرعون عندما كان يريد تفريق الناس كان يجعل لكل فرقة منهم مذهب يتعصبون له ويشحنهم ضد بعض ويحاول التحريش بينهم، كان يقصد هذا.

{وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ}[الصافات ٨٣] سيدنا إبراهيم من شيعة سيدنا نوح، فهو يتبع نوح على عقيدة وليس مجرد اتباع! هناك عقيدة معينة يتبعه عليها.

فعندما يحدث هذا الانفصال بين الناس ويكون مبني على عقائد؛ وقتها الحرب تكون أصعب والقتال يكون أكثر شراسة. لذلك {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} جاء بعدها {وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ} قيل البأس هو القتال لأنهم بعدما اختلفوا وأصبحوا شيعًا فيحدث التقاتل بينهم.

{أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ} وهذا مثلما يحدث بيننا في واقعنا الحالي، وما تحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث كثرت فيه الروايات؛ منها أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة طويلة، فقالوا: يا رسول الله صليت صلاة لم تصلي مثلها، قال: (إنها صلاة رغبة ورهبة)[٥] أي كأنه يقصد: أتمنى شيء من الله وأخاف من شيء فقمت أدعو الله عز وجل- (سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فأعْطَانِي

[٥] الترمذي(٢٧٩هـ)، سنن الترمذي ٢١٧٥.[حسن غريب صحيح]

ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بالسَّنَةِ فأعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بالغَرَقِ فأعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا)[٦]

. أي لن يحدث أن الغرب والمشرق يقرروا أنهم يقتلوا جميع مسلمي العالم فينهوا المسلمين عن آخرهم؛ هذا لن يحدث حتى ولو لم يكن لدينا إلا بعض الخناجر وهم معهم كل أسلحة العالم! سيقتلون جزء كبير من المسلمين لكن قدر الله عز وجل أنهم لن يهلكوا جميع المسلمين. وعد من الله عز وجل أنه لن ينزل عذاب عام من السماء يستأصل كل المسلمين.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن سبب إهلاك الأمم ثلاثة: إما عذاب رباني خارج طاقة البشر، وإما قتال بشري بين الأعداء، أوقتال بشري فيما بيننا. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف على أمته فأراد أن يمنع هذه الأسباب الثلاثة التي تهلك الأمم. العذاب الرباني وهو الاستئصال العام، فالله عز وجل وعده ألا يرسل عليهم عذاب عام، وكذلك لن تُستأصل الأمة من عدو خارجي، لكن لم يمنع مقاتلة المسلمين بعضهم بعضًا!

وهذه الآية لها علاقة قوية بالواقع والخلاف الرهيب الذي بيننا ونعشيه حاليًا . وكثير من المفسرين ذكروا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو كان يقرأ هذه الآيات ويقول: (أعوذ بوجهك..)[٧] مع أن هذه الآيات سياقها مع الخطاب الموجه للمشركين. هل يمكننا اسقاط هذه الآية على المسلمين؟ كل هذا إن شاء الله نذكره بالتفصيل الدرس القادم بإذن الله عز وجل.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله أنت أستغفرك وأتوب إليك وجزاكم الله خيرًا.

[٦] الترمذي(٢٧٩هـ)، سنن الترمذي ٢١٧٥.[حسن غريب صحيح]
[٧] البخاري (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري٤٦٢٨. [صحيح]